

(٤) ولتر ليبمان:

ولتر ليبمان من المفكرين الأمريكيين الرواد الذين تركوا بصماتهم واضحة على مجالات عديدة، في مقدمتها: الصحافة والسياسة والتاريخ والاجتماع والفلسفة والحضارة والأخلاق والدبلوماسية، وكانت مقالاته ودراساته وكتبه وأحاديثه بمثابة الدفعة التي وجهت الأفكار والرؤى إلى آفاق مضيئة ومتبلورة، وسط تيارات صاحبة ومتلاطمة في خضم الحياة الأمريكية. وقد ولد عام ١٨٨٩ لأسرة محبة للتعليم والثقافة، وحرص أبواه على أن يصحباها معها في زيارتها لأوروبا، وشجعها فيه ميله المبكر إلى الفن والنقد الأدبي. وفي عام ١٩٠٩ تخرج في جامعة هارفارد حيث لفت إليه أنظار اثنين من كبار الفلاسفة الأمريكيين وليم جيمس وجورج سانتيانا. واستمر في دراساته العليا أربع سنوات، درس فيها بعد ذلك الفلسفة، وبقيت صلته بجامعة هارفارد لا تنقطع طوال حياته حتى وفاته في عام ١٩٧٤، وظل عضواً بمجلس الأمناء فيها من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩.

ومنذ مطلع حياته، سطع نجمه في الحياة الأمريكية سواء الصحفية أو السياسية. وتجاوزت شهرته الحدود الأمريكية، فكان على صلة حميمة بكبار مفكري أوروبا من أمثال ه. ج. ويلز، وجورج برنارد شو، والاقتصادي البريطاني الرائد جون ماينارد كينز، الذي كانت نظريته التي عرفت باسم «دولة الرفاه» خير وسيلة عبرت بها أوروبا كوارثها الاقتصادية التي ترتبت على الحرب العالمية الثانية. وقد اكتشف المؤرخ والناقد الاجتماعي لنكولن ستيفنز في ليبمان ما وصفه بأنه: «العقل القادر على التعبير في كتاباته عما يدور بخلد، إذ يدرك تمامًا أبعاد كل معنى استوعبه وهضمه». ورأى فيه الليبراليون والمفكرون الاشتراكيون شعاعاً جديداً أضاء دهايز الفكر الأمريكي، كما أنه التحق بالجمعية الغابية التي طورت مفهوم الاشتراكية في بريطانيا. وفي الرابعة والعشرين من عمره، دعاه هيربرت كرولي للعمل في صحيفة «نيوربيك» التي نشر فيها «أشعار» «بول ماريت» عام ١٩١٣، وكتابه الرائد «مقدمة في السياسة» في العام نفسه. وقد اعتبره إرنست جونز مؤرخ سيرة فرويد أول تطبيق للفرويدية على السياسة. وبعد ذلك توالى دراساته وكتبه، التي تجلّى فيها كمفكر وفيلسوف قادر على تحليل مجتمعه وعصره بأسلوب رصين ومنطقي، لا يحمل أية أعراض انفعالية، كما فعل في كتاب «التبعية والقيادة» (١٩١٤)، و«دعائم الدبلوماسية» (١٩١٥)، و«الحرية والأخبار» (١٩٢٠)، و«الرأي العام» (١٩٢٢)، و«مقدمة في الأخلاق» (١٩٢٩)، و«التفسير: ١٩٣٣ - ١٩٣٥» (١٩٣٦)، و«الحتمية الجديدة» (١٩٣٥)، و«المجتمع

الصالح» (١٩٣٧)، و«السياسة الخارجية للولايات المتحدة» (١٩٤٣)، و«أهداف الولايات المتحدة من الحرب» (١٩٤٤)، و«الحرب الباردة» (١٩٤٧)؛ و«الفلسفة العامة» (١٩٥٥)، و«نحن والعالم الشيوعي» (١٩٥٩). وفي عام ١٩٦٢، فاز ليبمان بجائزة بوليتزر كمراسل صحفي دولي.

وبالإضافة إلى النشاط النقدي والأدبي الذي ميز جهود ليبمان في مطلع حياته، كان نشاطه السياسي مسيطرًا عليه لدرجة أنه انفرد بكل إنجازاته بعد ذلك؛ وخاصة بعد أن أدى الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى نقيبًا في المخابرات الحربية، وعمل مع الكولونيل إدوارد م. هاوس وايزايا بومان في وضع شروط الصلح الأمريكية، وقام بإعداد ثمانى نقط من الأربع عشرة نقطة، واشترك بعدها في مؤتمر الصلح في باريس. وظل يشارك في تحرير صحيفة «نيويورك» حتى عام ١٩٢١. وكانت فترة من النمو الفكري الهادىء. مرّ فيها منهجه الفكري بمتغيرات عديدة، كتب عنها آرثر شليزنجير (الابن) قائلاً: «إنه ولد في ذلك العصر الفيكتوري الهادىء عام ١٨٨٩، ليجد نفسه في مواجهة عصر يجيش بالتقدم، فاعتنق الاشتراكية قبل أن يترك هارفارد عام ١٩١٠، إلا أن اشتراكيته سرعان ما تلاشت ظاهريًا لكنها ظلت كامنة في أعماق فكره، فخلفت بقايا راسخة بدت في صورة من الإيوان بضرورة التخطيط العقلي والنظرة العلمية السديدة التي تسعى للتحكم في فوضى المجتمع الحديث».

وقبل أن يكتب ليبمان ذلك، عبر عن إيمانه بأن الناس يعيشون حقبة نائرة حافلة بالقلق، تمر فيها القيم بنوع من التغير البعيد المدى بلا حدود، وصرح في كتابه «مقدمة في الأخلاق» بأن ما أسماه «أحماض التمدين» تذيب القيم السائدة، وقد رأى في حملة تيودور روزفلت عام ١٩١٢، أول جهد سياسى من نوعه يتصدى لتحديات النظام الصناعى، إلا أن حماسه لروزفلت سرعان ما تضاءل، عندما لجأ إلى العدوانية كحل حاسم للمشكلات التي واجهها. وبعده جاء ودر وويلسون ليرى فيه ليبمان مع صحبه أمل أمريكا إن لم يكن أمل الإنسانية جمعاء، إلا أنه اكتشف أن الانحراف والعمل الذى لا يقوم على خطة فى الأنظمة الديمقراطية لا بد أن يضر بالمجتمع، إذ إن الحكومة النيابية تتعرض للخطر، إذا ما فشلت فى توجيه الموارد القومية توجيهًا مثمرًا يتواءم مع المتغيرات الحادة لهدف محدد مرسوم، وقد أعلنها ليبمان صريحة أن الكونجرس أصيب بخلل لا يمكن تجاهله، وأصبح فى أشد الحاجة لتنظيم جديد. وإلى ما قبل السبعينيات من القرن الماضى بزم من طويل حين كانت رئاسة الجمهورية بمثابة إشكالية مطروحة لنقاش ممتد وجدل لا يتوقف، حذر ليبمان من هذا النشاط

المحموم الدائر حول أعلى مركز للقرار في الولايات المتحدة، والقصور البادى في كافة الجهات الإدارية الأخرى، والرئيس مثقل بكل أعباء المستبد العادل أو الطاغية المحسن، لكنه يرفض أن يجعل السلطة ذات أثر واضح في جعل الحياة أكثر راحة وطمأنينة. ويواصل لبيان تحليله للمأزق المستحکم، فيقول:

«إننا نتوقع من هذا الإنسان الفرد أن يعبر بلسان الشعب وأن يصوغ مطالبه، وأن يضع لها البرامج الكفيلة بتنفيذها، كما نتوقع منه أن يلقي بها وبالبرامج المعدة لها إلى هذا النظام الحزبى المتطفل، وأن يحمل حزيه على تأييدها، وأن يبدع نظاماً إدارياً هرمياً عفاً طاهراً يحقق له أهدافه وخططه. ونتوقع منه أن يلقي نظرة إلى الروتين الذى يسيطر على اهتمامات الجماعة، وأن يعد للمستقبل، وأن يكون له نصيب فى كل ما صنعتته يده. وما من إنسان يستطيع أن يقوم بذلك».

وكان لبيان فى كتاباته الأولى مؤمناً إيماناً عميقاً بدور الاشتراكية فى التخطيط بحكم أنها كانت التجسيد العملى لروح العصر، ولكن هذه النظرة العامة كانت تنطوى فى داخلها على نزعة أصيلة للروح المحافظة، وتأييد للنظام، وثقة راسخة فى هدى العقل، وبلغت هذه النزعة قمته فى مؤلفه الكبير «الفلسفة العامة» (1955)، وهو كتاب من العمق والخصوبة لدرجة أنه لقي على غير المؤلف القليل من التقريظ، إذ لم يكن السياسى هانز ج. مورجنتو فى عرضه للكتاب، ما طاف به من آمال فى وضع مستويات موضوعية تمنهج العمل السياسى وتمهد له، فيقول:

«إنه كتاب يبعث الأمل النبيل فى إحياء مثالية القرن الثامن عشر العقلية، والإعلاء من شأن العقل لتغيير الفلسفة التى يحتذيها الناس ويعيشون حياتهم عليها. إن مستر لبيان يؤمن بأن الناس قادرون فى سلوكهم وأفكارهم السياسية على أن ينهجوا منهجاً عقلياً طيباً، وأن هذا الاتجاه هو الأساس الثابت لفلسفة عامة، وقد حاولنا هربرت بترفيلد، ورينولد نيبور وأنا وآخرون غيرنا، أن نبرز مدى ما يحيط بالعلاقة بين العقل والسياسة من خلط وإبهام بأكثر مما ساقه لبيان بإيانه العقلى وتواضعه الجمل».

ويقرر مورجنتو أنه بالغ كثيراً فى نقده وفى تقينته لهذا المنظور، ومع ذلك كانت عقلية لبيان السياسية ركيزة لكتاباته. ففى مقالة فى أول عدد من أعداد صحيفة «نيوريبيك»، يبدأ بقوله: «ما من إنسان عاقل إلا ويدرك تماماً أن بناء مدينة أصعب بكثير من هدمها، وأن فلاحة حقل أكثر جهداً من تخريبه، وأن غزو شعب أيسر من رعايته والقيام على خدمته، وأمل الإنسان فى أفكاره لا فى بنادقه ومدافعه، وأن أفكاره وحدها هى أعظم سلاح لقهر النزعة إلى الإرغام. وعقل الإنسان هو الذى يعنى

السلاح، وهو الذى يقرر حشد الجيوش وتسليحها، كما أن الناس هم الذين يقيمون ترسانات الدمار التى اتسعت وانتشرت بحيث فقدوا القدرة على السيطرة عليها. ومع ذلك فإن هذا الإنسان هو وحده القادر، إذا ما أراد، فى المستقبل على قمع الحرب، إذ إنه صاحب القرار فى إيقافها أو استمرارها، ومن هنا يتحتم عليه أن يصون الحضارة بحيث لا يتسنى لأى آلة أن تكون أداة للغدر بها. لكن هذا الوعى يحتاج إلى عقل كبير ليصنع المحراث كما يصنع السيف، إذ يتحتم عليه أن يتسلح بقيم إنسانية عليا حتى يفضل صناعة المحراث على السيف».

وقد بدأ لبيمان مساره العقلانى بتلك الأفكار والتوجهات التى سعت صحيفة «نيوريبيلك» للدعوة إليها، وفى مقدمتها الاشتراكية والويلسنية ومعارضة توازن القوى، الذى يضع العالم على حافة الهاوية. فقد كتب فى ٢٧ يناير ١٩١٧ مؤكداً أن توازن القوى لم يؤد إلى صيانة السلام فى أوروبا، ولن يتحقق له ذلك، لاستحالة وجود هذا التوازن الذى يحتم التساوى فى قوة الردع لدى الأطراف الداخلة فى الصراع، لأنه لا يوجد الطرف الذى يمتلك المعرفة الكافية عن حجم ونوعية القوى التى يمتلكها الطرف الآخر الداخلى فى معادلة المواجهة. وحين كوّن الرئيس وودرو ويلسون جماعة من الخبراء للإعداد للسلام بعد الحرب العالمية الأولى، اختاره سكرتيراً لها، وأسهم فى وضع النقاط الأربع عشرة، وشارك فى صياغة الديباجة الرسمية التى عرضها الكولونيل هاوس فى المفاوضات التى سبقت الهدنة. وأيد اتجاه الرئيس ويلسون فى اعتباره أن هدف الحلفاء من ألمانيا أن يكونوا «صانعى سلام وليسوا فاتحين»، وأن تسوية ما بعد الحرب يجب أن تنهض على الوفاق بين القوى دون العمل على توازن القوى، لأن الوفاق مطروح دائماً للتفاوض والتفاهم، أما التوازن فعملية خادعة لأنها مبهمة، ولا يمكن ضبطها أو تقنينها.

وبعد ما كتبه هذا بأقل من شهر، حاول لبيمان فى ١٧ فبراير ١٩١٧، أن يحذر الرئيس ويلسون من أن الأخلاق والشرعية كعنصرين ضروريين لا يكفيان وحدهما؛ لأنه لا يمكن الاستغناء عن استراتيجية فعالة للحرب والسلام. فيقول إن: «الشعوب الضعيفة هى التى يسيل لعابها للحرب. ولا تدرى لماذا، ولا كيف ولا أى الأمرين». وليس هناك من يستطيع أن يدين الحصار البريطانى، أو حرب الغواصات الألمانية طالما أنه يدين الحرب عامة على سبيل المبدأ الذى لا يعرف الانحياز إلى جانب دون الآخر. وعلى أية حال، فإن الاختيار بينهما، لا يعنى أن تختار الولايات المتحدة الشرعية على اللاشرعية أو الرحمة على القسوة، ولكن كما يقول «إذا كنا لا نرضى بانتصار ألمانيا، فإن ذلك لا يعنى أن نغلق البحار فى وجهها، وأن تبقى مفتوحة فى وجه الحلفاء». ولو

استمع العالم الغربي لهذا الرأي المصيرى للبيان، لما وقعت الحرب العالمية الثانية بعد ذلك باثنين وعشرين عامًا، لأن الانفجار الألماني الهتلري في أول سبتمبر ١٩٣٩ كان بسبب غلق البحار في وجه ألمانيا منذ هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وكان دعم ليبمان لإرساء قواعد السلام متطابقًا إلى حد كبير مع الجهود الحثيثة، التي بذلها جورج كينان لإبعاد شبح الحرب وكابوسها عن العالم، وخاصة عندما قال:

«نحن قوم لا نرضى بغير الشرعية، وقد حجبتنا اتجاهاتنا الحقيقية في غلالة من المصطلحات الفنية... فنحن ننشد مساعدة الحلفاء، ونريد أن نعوق ألمانيا، إلا أننا نود بالتالي أن نبقي بعيدًا عن الحرب، ولهذا انسأقت حكومتنا إلى الخلط بين هذه المصطلحات الفنية والنقطة الفاصلة، وأخفينا أهدافنا المنحازة تمامًا في أردية من تعبيرات الحياد».

وكان ليبمان حريصًا على وضع الأمور في نصابها حتى لا تدخل السياسة الأمريكية الخارجية في متاهات هي في غنى عنها، ويجنب بالتالي السياسة الدولية من مواجهة عراقيل وعقبات قد تهدد السلام العالمي برمته. فقد كان ليبمان أول من أوضح بجلاء شديد منذ الحرب العالمية الأولى، أن قدر العالم أصبح عملة ذات وجهين لا يمكن أن ينفصلا، وهما السياسة الأمريكية الخارجية والسياسة الدولية، ومن هنا كانت ضرورة مواجهة الحقائق والوقائع بعيدًا عن أية شعارات أو تهويلات. ولذلك كان أول من أكد أن ما يحارب من أجله الأمريكيون هو أمن الأطلنطي وسلامته؛ لأنه يمس المصير الأمريكي في الصميم، وليس لأن أمريكا هي رسول العناية الإلهية لانقاذ البشرية. فهو يتساءل:

«لماذا؟ لأن على ضفتي الأطلنطي اتسعت شبكة المصالح العنكبوتية التي تنطوي على العالم الغربي كله: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وحتى إسبانيا وبلجيكا وهولندا والشعوب الاسكندنافية مع المجموعة الأمريكية في وحدة تامة من المصالح الحيوية المهمة... وهي مصالح تربط بين جميع هذه الدول في هذا المحيط، الذي يصل فيما بينهما.... فإذا انهارت هذه المجموعة فإننا لا بد وأن ندرك مدى خسارتنا، ومن ثم فإن علينا أن نعي تمامًا ما تعنيه حدود كندية مفتوحة، والحماية المشتركة التي تضطلع بها الأساطيل البريطانية والأمريكية لأمريكا اللاتينية».

فالقضية هي قضية مصالح مشتركة ومتبادلة أولاً وأخيراً، وفي هذه الحالة فإن الكلمة الأولى والأخيرة هي الحقائق والوقائع الرابضة على الأرض. فإذا كانت ألمانيا قد نقلت ميدان الحرب إلى الأطلنطي، عندما خرقت حياد بلجيكا في غزوها لفرنسا، وضررها لبريطانيا ومحاولتها إزعاج الولايات المتحدة، فإن الحياد عملاً وقولاً يغدو

ثرثرة فارغة بعيدة عن الحقيقة، وإذا انتصرت ألمانيا في أعلى البحار فإنها تزعم الشرق ضد الغرب، ويصبح في إمكانها أن تقود التكتل الألماني الروسي الياباني ضد دول الأطلنطي، وبالتالي ينقلب ميزان القوى إلى صالحها، وهو ما لا يمكن أن تقبله الولايات المتحدة، وخاصة أن فكرة العزلة الأمريكية كانت قد فقدت كل مقومات وجودها.

ولم يمر على هذا التحليل العلمي والعملى الموضوعى الذى أورده ليبان، أكثر من عامين، إذ إنه في ٣ سبتمبر ١٩١٩، انفصمت عرى العلاقة الوثيقة بين ليبان وويلسون. ومع ذلك فإنه برغم تقادم العزلة الأمريكية، فإنه ليبان ظل يتساءل عما يمكن أن يجلب محلها، شاعرًا بخطر اندثار القديم دون أن يملأ فراغه جديد متبلور الملامح ومتسق التوجهات. وخاصة عندما أعلن الرئيس ويلسون: «أن ما جرى لم يرد على بالنا من قبل، ولكنها إرادة الله... ولا نستطيع أن نعود إلى الوراء، وعلينا أن نمضى قدمًا بجباه مرتفعة شامخة، وأمل غامر لتحقيق هذه الرؤيا»، إلا أن ليبان يرى أنه بالفعل لا يستطيع أن يعود إلى الوراء لأن الزمن يسير في اتجاه واحد، وأن عليه أن يمضى قدمًا لتحقيق رؤياه، لكن ليبان تساءل: أية رؤيا وأين؟ وبلغته الناصعة الشفافة، اتجه إلى الرئيس ويلسون شارحًا رأيه:

«من الخصائص الكامنة في فكرة اللاعزلة الجديدة أنها تقود إلى الدمار، والفكرة القديمة كان لها على الأقل ملامحها المتبلورة، أما الفكرة الجديدة فلا تعدو أن تكون انحرافًا إلى خط جديد غير محدد، ولهذا، فإنى أرى أنها لا تعدو ما كان موجودًا في العام الماضى. فإذا كنا قد اخترنا أن نكون «شركاء»، فإننا قد نسينا أن نحدد خصائص هذه الشراكة وآفاقها، وإذا كنا قد قررنا أن يكون لنا دور في الشؤون الدولية، فإننا في فرحتنا قد نسينا أن نعرف إلى أى مدى وعلى أى وضع».

وقد عاد هذا التشتت الفكرى إلى الظهور عندما أخذ ليبان يندد بسياسة احتواء الشيوعية في شتى بقاع العالم. وهى فكرة الاحتواء التى نادى بها المفكر السياسى والدبلوماسى الأمريكى الكبير جورج كينان، والتى كانت تهدف إلى احتواء الشيوعية ومحاصرتها في الأماكن التى ربضت فيها؛ حتى لا تنتشر كالنار في الهشيم في الدول وبين الشعوب التى مزقتها وأنهكتها الحرب العالمية الثانية. لكن الإدارة الأمريكية انحرقت بمفهوم كينان للاحتواء؛ لتحوله إلى الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم أجمع، وبالتالي يمكنها القضاء على الشيوعية وليس مجرد احتوائها. وكما هاجم كينان هذا التحريف لنظريته لكن لا حياة لمن تنادى. وقد عانى ليبان مثلما عانى كينان من

إصرارهما على عدم الربط بين نظرية الاحتواء وسياسة الهيمنة الأمريكية التي يمكن أن تدخل بالعالم أجمع في متاهات لا حدود لها.

ولم يفقد ليبمان بوصلته الفكرية والعقلانية أبدًا، فقد كان حريصًا على نظرتة الثاقبة ورؤاه الشاملة في عالم مكفهر غاضب خال من الرشد. فهناك خاصيتان ثابتتان بعمق في كتاباته كمحورين فكريين يميزان معظم كتاباته، ويتمثلان في إيمانه الراسخ بالتغير والاستمرار. وكثيرًا ما بلور رسالته الفكرية في محاولته الوصول إلى تعريف محدد لآليات الخلل المتزايد الذي يسود المجتمع الغربي، وإعادة فتح أبواب جديدة للحوار حول القضايا الكبرى، التي يرفض أن يأخذها على علاتها لأنه، على طريقة سقراط، يؤمن بأن كل فكر قابل لإعادة تقييمه من زوايا لم تطرق من قبل. ولذلك واطب على أن يعيد النظر في كل الاحتمالات، التي مر بها فيها احتمالاته هو نفسه، وجاهد جهادًا لا يهدأ من أجل البحث عن احتمالات نظام جديد في عصر تسوده الفوضى والضياع والإيقاع اللاهث الذي لا يتيح فرصة للتفكير العقلاني المتأنى، من أجل أن يصل بأبناء عصره إلى بر الأمان الفكري والمعيشي. وكان همه الأساسي يتمثل في نشدان حقائق ثابتة وراسخة بقدر الإمكان بحيث تصبح أساسًا لحياة بشرية لائقة.

وليس من المبالغة في شيء أن يُجمع أهل الفكر والصحافة على أن ليبمان هو أحسن صحفي عصره، وربما أقواهم وأعمقهم تأثيرًا، لدرجة القول بأنه لا يوجد مثيل أو شبيه له في كتاباته، التي تعتبر في مقدمة الكلاسيكات الصحفية على مستوى العالم، وذلك على حد قول آرثر شلينزجر (الابن) المؤرخ والأستاذ بجامعة هارفارد، والذي يعتبر في مقدمة من درسوا إنجازات ليبمان باستفاضة، وخاصة عموده اليومي الشهير: «اليوم وغدا» الذي كان نموذجًا يضرب به المثل في سلاسة اللغة، وفي تقصي كل ما يتصل بموضوعاته التي يكتبها، وفي نظرتة الثاقبة البعيدة التي لا تخيب، وفي رغبته الجياشة في أن يهدي الناس إلى حقائق الساسيتين الخارجية والداخلية. وما من أحد غيره تصدى لكشف قوة التقاليد وقوة التغير، أو استطاع أن يبعث الإجلال والتوقير لقيم خلدتها الزمن، أو صور فوضى الحياة العصرية التي جعلت النسيج الساسي والاجتماعي يهترئ ويحتاج إلى إحياء قدرته على تشكيل القيم الخالدة وإعادة صياغتها وتوظيفها في الحياة العامة.

وكرائد ينشد الرشد ويهتدى بنور العقل، ظل ليبمان يضيء الطريق ويكتشف عن حقيقة المشكلات التي يضطرب بها العصر دون إدعاء بأنه سيأتي بالحلول التي لم تحظر ببال أحد، إذ كان في منتهى التواضع الذي يرتبط بكبار العلماء والرواد. وفي عموده المتميز الذي ظل يكتبه في صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون»، لم يدع إطلاقًا أنه قادر

على تقديم إجابات لا تحتل أى خطأ أو قصور. وكانت تحليلاته وتعليقاته المتتابعة عن مجريات الأمور السياسية الراهنة، توحى بأن السياسة القائمة مبهمة وخاطئة، بل وأقرب إلى مضاعفة أسباب العلة منها إلى شفاء المرض الذى توظف من أجله. ومع ذلك فإن ليبمان أستطاع أن يدرك النوايا الطيبة وخفايا السياسة التى تتحكم فى مجرى التاريخ، وبرغم ضيقه بالعاطفية السطحية والتفاهة العقلية، فإنه لم يكن مجرد آلة حاسبة، ولم يكن مجردًا من العاطفة والتأثر الإنسانى. فمثلاً فى كتابه «رجال الأقدار» (١٩٢٧)، تناول فى صور طريفة ولماحة وممتعة تقييمه لكل من الروائى الأمريكى «سنكلير لويس» والناقد الأمريكى والمفكر الاجتماعى «ه. ل. مينكن» ومجموعة من أحسن الأدباء والنقاد الذين يجبههم، وعبر فيها عن نظره العميقة الزاخرة بالدعابة والسخرية إلى التفاعل بين الأشخاص والقوى التاريخية، وكانت تعليقاته الخاصة تومض بكل تناقضات الطبيعة البشرية التى تجمع بين البطولة الشائخة والسذاجة العشوائية معًا. وبعد وفاة فرانكلين دي لانور روزفلت، كتب ليبمان: «إن الحكم النهائى على أى زعيم، يقاس بما تركه فى الناس من إصرار ويقين على المضى إلى الأمام». وهذا ما ينطبق على ليبمان نفسه، إذ لا يوجد صحفى جاء بعده، يستطيع أن يغفل أو يتجاهل أو يتناسى مما خلفه من شفافية ولماحية وبلاغة فكرية كانت بمثابة السهل الممتنع فى صحافة العصر.

وكان البريق الصحفى المحيط بشخصية ليبمان، قد جذب الأنظار بعيدًا عن دوره الذى لا يقل فى قيمته عن ريادته الصحفية، وهو دور المؤرخ الذى يكتب ويرصد ويحلل من واقع خبرته العملية وتجربته الشخصية، وليس من مجرد المراجع التاريخية. فمن الصعب وجود حكم من أحكام التاريخ المعاصر، له وزنه وقيمه، إلا ويدخل فى نطاق الدائرة الفسيحة لتفسيراته للمجتمع وتحليلاته للسياسة العامة. وقد تجلّت هذه الظاهرة منذ ظهر كتابه الفريد «دعائم الدبلوماسية» (١٩١٥) حتى كتاباته عن العلاقات السوفيتية الأمريكية: «نحن والعالم الشيوعى» (١٩٥٩)، و«الاختبار القادم مع روسيا» (١٩٦١)، وفى أثناء هذه المرحلة كتاباته عن الحضارة الغربية مثل كتابة «العزلة والتحالفات» (١٩٥٢)، وكتابه «الوحدة الغربية والسوق المشتركة» (١٩٦٢) وكانت الولايات المتحدة هى المحور، الذى انطلق منه لتناول هذه الموضوعات المتعددة والقضايا المتشعبة، والذى كان يعود إليه من حين لآخر للتركيز على العلاقات الجدلية فيما بينها. ومن هنا كانت النظرة الفكرية المتسقة التى تتمتع بها كتاباته، والحكمة التى تسرى فى كل أفكاره وتوجهاته.

كان على يقين بأن الولايات المتحدة يعوزها خلال القرن العشرين، سياسة خارجية متبلورة وثابتة بحيث تكون مقبولة من كل الأطراف المعنية. وبسبب هذا

القصور أصبحت تبدو عاجزة سواء في مجال الإعداد للحرب أو صيانة السلام، وهذا واضح في أغلبية الحروب التي دخلتها، واتفاقيات السلام التي وقعتها بعد أن أتت حروبها على الأخضر واليابس. وكان لبيان يرى أن الولايات المتحدة كانت لها سياستها الخارجية الحكيمة منذ تلك الفترة التي تلت حرب ١٨١٢ حتى نهاية الحرب مع أسبانيا عام ١٨٩٨. والتزمت سياسة البلاد طوال القرن الأول من تاريخها، بحدود مياها الإقليمية، وإن كان الشعب قد انقسم على نفسه في انتخابات الرئاسة عام ١٩٠٠ بشأن نتائج الحرب مع إسبانيا. ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الرئيس أن يعتمد في سياسته الخارجية على تأييد يتفق عليه الشعب.

ومنذ أعلن مبدأ مونرو الرئيس الخامس للولايات المتحدة (١٨٢٥) حتى نهاية الحرب مع إسبانيا، لم يكن لدى الشعب الأمريكي أى اهتمام بوضع سياسة خارجية، وكان النسيان أو التغاضي هو السمة المميزة للسياسة الخارجية، وهو وحده الكفيل بتسوية أى جدل أو حوار مع الأيام. وفي هذا يقول لبيان: «ما من سبيل للتفكير في سياسة خارجية دون الحفاظ على المبدأ القائل بأن الشعب يحقق أهدافه كما يحقق قوته على حد سواء، وأن تكون نواياه متفقة مع وسائله، ووسائله مساوية لنواياه، وأن تتفق التزاماته مع قدراته، وقدراته مناسبة لالتزاماته». ويهدف لبيان بهذا التكرار أن يركز على جدلية العلاقة بين الوسائل والغايات.

ولم يقف لبيان موقف الخصومة مع أى رئيس أمريكى بداية من تيودور روزفلت حتى ريتشارد نيكسون، لكن كان كل ما يأخذه عليهم فشلهم في تطبيق هذا المبدأ الذى أدى إلى فشل سياستهم. فقد فصلت أمريكا بين الحرب والسلام فوقعت في الخطأ المميت الذى يفصل بين الوسائل والغايات، فكانت النتيجة أن الوسائل فشلت في تحقيق الغايات لأن الكفتين لم تعادلا، سواء على مستوى الكم أو الكيف. فلم يكن هناك حساب دقيق لاعتبارات التسليح والمواقع الاستراتيجية أو الحلفاء المحتملين أو الأعداء المتوقعين، رغم أن من حتميات السياسة الخارجية أن تتوازن الوسائل والغايات، كما أن على الشعوب أن تؤدى ثمن ما تريد، في حين يتحتم عليها ألا تريد إلا ما تقدر على أداء ثمنه. وقد فشل الأمريكيون لأنهم كانوا على الدوام ضحية الرأى المبتسر عن تحوفهم وحدودهم وقواتهم العسكرية وعن حلفائهم أيضًا. ولم يكتف لبيان بهذا النقد التنظيرى العام، بل أبدى رأيه بصورة قاطعة بقوله:

«إنما أعنى بالالتزام الخارجى ما يتخطى الحدود القارية للولايات المتحدة، وهو ما يؤدى في النهاية للتصدى له إلى إعلان الحرب. كما أعنى بالقوة القدرة على الإرغام الذى يحول دون وقوع الحرب، أو كسبها إذا تعذر منعها، وما يدخل في مضمون القوة

الضرورية، القدرة على الإرغام العسكرى، الذى يمتاز بحرية الحركة داخل حدود الولايات المتحدة، كما يمتاز بالتعزيزات التى يمكن أن يمدنا بها حلفاؤنا الذين يعتمدون علينا».

والمحور الأساسى الذى يدور حوله فكر ليهان فى السياسة الخارجية يتمثل فى موازنة التزامات الشعب بقوته، وتكوين قوة كبرى قد تدعو الحاجة إليها لكنها لا تثقل عليه. يعبر ليهان عن هذا التوجه فيقول فى وضوح وشفافية:

«إذا أمعنا النظر فى المثل، والدوافع، والمطامح التى تجد تأييدًا فى الخارج بحكم أن قياس قدرة أصحاب القرار، يتجلى فى حقهم الشرعى فى حشد ما يقدرون على حشده من القوات فى أرض الوطن، وما يجدونه من عون خارجى من شعوب لها نفس المثل والدوافع والمطامح. وقد يختلف الحد الذى يمكن أن يقف عنده هذا التوازن الخالص، كما يختلف تمامًا بين أسرة فقيرة وأخرى ميسورة وثالثة ثرية، ولكن الأساس يجب أن يكون معروفًا وأن يتحقق ليحول دون وقوع الكارثة».

ويستشهد ليهان ببداية تاريخ الولايات المتحدة من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨٢٣ بما شابهها من خصومات مريرة غائرة، فى النفوس، مما دعا الرئيس جورج واشنطن إلى إعلان خوفه على الجمهورية من كوارث الفرقة والتخرب، وهو يلقي خطاب الوادع عند انتهاء مدة رياسته. فقد كاد التحزب لفرنسا والتحزب لبريطانيا أن يقودا البلاد إلى الحرب الأهلية، مرة مع هذه وأخرى مع تلك. ويطغى على كفاح الشعب للمحافظة على كيانه، ما يتوقعه من التدخل المسلح للقوى الكبرى المتجمعة فى وسط أوروبا، وقد سرت إشاعات بالانفصال وخاصة بين ولايات نيوإنجلاند. وفى غياب منظور موحد عن وسائل وغايات السياسة الخارجية، بدت الصورة مأسوية خاصة عندما ثارت أزمة أعراق المواطنين، والتى جعلت الأمريكيين يبدون قبائل متناثرة.

ويركز ليهان على عام ١٨٢٣، عندما قام ثلاثة من ولاية فرجينيا هم جيمس مونرو، وتوماس جيفرسون، وچيمس ماديسون، بوضع تصور قومى لآليات السياسة الخارجية الأمريكية وتقديم حلول لمعضلاتها. ومع مبدأ مونرو والتفاهم الضمنى الذى انطوى عليه، وإن كان ارتباطه بالقوة البريطانية واضحًا للغاية، فإن التوافق تم بين الالتزامات والدوافع الحيوية. ولم يقف هؤلاء الفرجينيون وحدهم فى الساحة، لأنهم جميعًا قاموا بإعلان المبادئ التى تنهض عليها السياسة الأمريكية الخارجية دون استهواء لمشاعر الجماهير، أو استجابة لأى إلحاح عنصري أو عرقى أو لأى جماعة من جماعات الضغط. ويعرّف ليهان الدوافع الحيوية بأنها تلك الدوافع التى لا يختلف الجميع فى الدفاع عنها حتى الموت. ومع هذه الثقافات العديدة،

والقوميات المتنوعة، تعلقو مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد وبقائه. وحتى المهاتما غاندى الذى مارس المقاومة السلمية، لم يحسب لحياته أى حساب فى مواجهة الدفاع عن الدوافع الحيوية للجماعة، فمثل هؤلاء الرجال على استعداد للإضراب عن الطعام حتى الموت جوعاً أو التضحية بحياتهم ولا يهجرون مبادئهم.

وتتمثل الدوافع الحيوية للولايات المتحدة فى كتابات ليمان المبكرة، فى الدفاع عن حدود الوطن المعترف بها. ولم يحجب إعجاب جيفرسون بفرنسا ما يمثله وجود الجيش الفرنسى المعسكر فى ولاية نيو أورلينز عند منبع نهر المسيسيبي من تهديد، وقد أدى شراء لويزيانا إلى حصول الولايات المتحدة على الأراضى اللازمة لحماية نيو أورلينز، واعترف جيفرسون بحقائق الدوافع الأمريكية، وإن لم ينل تأييد المحكمة العليا إلا بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا، واستقرت أوضاع هذا الوطن القارى الأمريكى الأكبر، ولكن السنوات التالية شهدت حاجة هذه الامتدادات القارية على الحدود الكندية والمكسيكية ومن الأطلنطى إلى الباسفيكى، إلى مواقع خارجية وامتدادات قارية جديدة للدفاع القومى. وكان الغزو الفرنسى للمكسيك عام ١٨٦١ قد أغضب الأمريكين، فلم يأت عام ١٨٧٣ حتى كان نصف الكرة الغربى داخل الحدود المعترف بها، وأصبح ركيزة لنظام الأمن ومحور القوة فى النظام الدولى الأبعد مدى.

ويفصل بين الولايات المتحدة وجيرانها ما دعاه ليمان محيطاً من الماء والهواء، وليست أمريكا الشمالية والجنوبية سوى جزيرتين فى هذا المحيط كما أنها جزيرتان، كل منهما متصلة بالأخرى، فأمرىكا الجنوبية حتى أسفل الذيل البرازيلى أقرب إلى أوروبا، فى حين أن أمريكا الشمالية أقرب لبريطانيا وأوروبا الغربية وروسيا واليابان منها إلى أمريكا الجنوبية والصين أو جنوب المحيط الهادى، فى حين أن أقرب جيران أمريكا من القوى الكبرى هم بريطانيا والاتحاد السوفيتى (السابق)، واليابان وكذلك ألمانيا التى استطاعت لمرتين أن تهدد التوازن النمطى باجتياح واحد أو أكثر من القوى الكبرى لتصبح أقرب جيران أمريكا. وبما أن الدفاع عن أمريكا الجنوبية كان دافعاً حيويًا للولايات المتحدة، وبما أن أمريكا قاصرة عن إعداد قوة عسكرية أساسية على أراضيها، وبما أنها كانت عرضة للتهديد من جانب قوة كبرى تحتاح نصف الكرة الشمالى، ولمنع أى تهديد لأمريكا اللاتينية، يصبح من الضرورى على أصدقاء الولايات المتحدة الكبار أن يفوقوا أعداءهم قوة أو يتساووا معهم على الأقل.

وتبدو مسئولية الولايات المتحدة الجسميمة فى أوضح صورها، بالتزامها بالدفاع - فى حالة وقوع حرب - عن الأرض والجو والبحر من ألاسكا حتى الفيليبين، من

جرينلاندا حتى البرازيل. وقد استطاعت أن تحمي تلك المنطقة الشاسعة، إلا في حالات استثنائية، من أي سيطرة عسكرية لقوة كبرى خارجية. وبسبب تفوق القوات المشتركة للعالم القديم تفوقاً ساحقاً على قوات نصف الكرة الغربي، فإن أمريكا لا تسمح لأي مكان في نصف الكرة الغربي أن يقع تحت سيطرة قوة كبرى حاكمة أو أي قوى، تستطيع أن تتسلل بنفوذها إلى الولايات المتحدة. ولكي تضمن حكاية نصف الكرة الغربي، فإن عليها أن تحافظ على توازن القوى في أي مكان في العالم، وقد يؤدي تغير تكنولوجيا الحرب إلى تغيير نظام الدفاع الأمريكي، وقد تضطر إلى تغيير بعض حلفائها طبقاً لمقتضيات أمنها، فهذا هو طابع القوة الذي تعيشه الولايات المتحدة.

وفي كتابه «أهداف الولايات المتحدة من الحرب» (١٩٤٤)، يرى ليبمان أن مبادئ ميثاق الأطلنطي، والحريات الأربع لا تستوعب كل الأهداف التي دار حولها الجدل، وإن بدت نوراً يهدي الشعب طريقه، لكنها لم تكن من المعالم التي ترشد بدقة شعباً مهيبض الجناح نحو الإمام. فقد كتب ليبمان: «إن السلام الذي يمكن أن نحصل عليه... هو السلام الذي رسمته نيران الحرب، ومن العبث أن ننكر هذا السلام وندعى أننا قادرون على غيره». وقد قام السلام على علاقات ثابتة وطيدة بين الحلفاء، وتم الاعتراف بقيام كتلتين: كتلة الأطلنطي، وكتلة السائرين في الفلك السوفيتي. وكما يقول ليبمان إن روسيا كتلة أرضية متواسكة لا تغرات فيها، في حين أن الولايات المتحدة عبارة عن نواة في جماعة الأطلنطي، وبين روسيا والعالم الغربي شكوك تمتد جذورها إلى زمن بعيد، زمن الانشقاق الديني في العصور الوسطى المظلمة التي قسمت الكنيسة إلى كنيستين: كنيسة روما وكنيسة بيزنطة.

◆ في هذا الإطار التاريخي، تقصى ليبمان أهداف الولايات المتحدة من الحرب، وتمثلت في تعزيز الروابط الاستراتيجية والدبلوماسية بين أعضاء جماعة الأطلنطي، والتسليم بالوضع الاستراتيجي للكتلة السوفيتية واستيعابه، بما فيها الدول الواقعة إلى الشرق من ألمانيا وإلى الغرب من الاتحاد السوفيتي، والتسليم بوضع الصين كإطار ثالث للاستراتيجية، استطاع أن يشغل الحيز الأكبر من شرقي آسيا، والتسليم بأن لكل من الشعوب الإسلامية والهندوسية والشمال الأفريقي (المغرب) والشرق الأوسط، استراتيجيته الخاصة التي يراها لنفسه، والتسليم بأن أي تسوية في الشرق الأقصى أو أوروبا يجب أن تستبعد اليابان وألمانيا من أي ميزان للقوى الكبرى في المنطقتين، والتسليم بأن أي تسوية تعقب الحرب، لا بد أن ترتبط بنزع سلاح دعاة الحرب، وحماية دعاة السلام بأن تجعل من الهزيمة نهاية حاسمة، ومن السلام بداية قوية.

ويرى ليبان أن جورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، كان على حق في تسويات السلام لما بعد الحرب العالمية الأولى، وأن الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون كان على خطأ لأنه غفل فيما يتصل بألمانيا بأن يكون السلام عامة بديلاً لسلام من نوع ما بهذه البساطة؛ لأن ويلسون قضى على التآلف الذى كسب الحرب، وقام وحده بتدشين التسوية، وأثار خصومة مؤذية لا جدوى منها مع إيطاليا حول ميناء فيومى. وفي الخصومة التى استغلها جبرائيل دانزيو، بدأت الفاشية تفرخ في إيطاليا. وبعد الحرب العالمية الثانية أخذ ليبان يؤكد بأن السلام يجب أن يقوم محددًا وواضحًا وفقًا لأوضاع العالم في تلك الفترة، وعلى قوى الحلفاء المشتركة أن تحمى السلام.

وفي كتابه «الحرب الباردة» (١٩٤٧)، تصدى ليبان للادعاءات المعيبة في مبدأ ترومان الذى تبلور في الاستراتيجية الأمريكية للأمن القومى والسياسة الخارجية، والتي أصدرها في ٣٠ سبتمبر ١٩٥٠، كوثيقة شاملة أسست برنامج عملها على أساس نظرية الاحتواء التى كانت قد أصبحت رسميًا، في نهاية الأربعينيات وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، الاستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة. في مواجهة العدو الجديد (الاتحاد السوفييتى)، والإطار الذى تدور فيه كل علاقاتها الدولية وقراراتها السياسية. وكان المقصود بالاحتواء في البداية، كما حدد جورج كينان مفهومه، هو الوقوف بالمرصاد لاحتواء أية محاولة للتوسع الشيوعى يسعى الاتحاد السوفييتى لتحويلها إلى أمر واقع، لكن الإدارة الأمريكية التقطت الخيط لتحويله إلى احتواء النفوذ السوفييتى داخل دائرة عالمية من الحصار، تتكون من الأحلاف والقواعد العسكرية والعلاقات الثنائية، بالإضافة إلى إدارة الصراع معه عن طريق إثارة حروب اقليمية أو أهلية، تضعف تأثيره وقدرته على التوسع، وكذلك عمليات الانقلابات والاعتقالات السياسية وغيرها.

وفي نفس عام صدور كتاب ليبان «الحرب الباردة» (١٩٤٧)، نشر جورج كينان مقالته الشهيرة «مصادر السلوك السوفييتى» التى لم تستوعبها قطاعات من المتعلمين بل والمنتقنين الذين أساءوا فهمها عندما اعتبروه منظر سياسة الحرب الباردة، من منطلق أنه هذه المقالة صاغ مفهوم سياسة الاحتواء، وقدم الأساس النظرى والفلسفى لهذه السياسة التى تبنتها إدارة ترومان، وبررت بها سياسة الأحلاف والقواعد العسكرية والحروب الإقليمية والانقلابات والاعتقالات السياسية؛ بهدف احتواء الاتحاد السوفييتى. لكن صفوة صغيرة من المفكرين هى التى تابعت التطور الفكرى لجورج كينان، منذ نشرة لمقالته وعمله على تصحيح المفاهيم الخاطئة إلى الحد، الذى جعله ينكر أبوته لهذه النظرية ومحاولات تطبيقها في سياق مختلف عن ذلك الذى

ولدت فيه. وكان لبيان على رأس هذه الصفوة الصغيرة، التي حاولت تقنين مفهوم الاحتواء كما أراده كينان، ولكنها لم تستطع أن تصمد في وجه أجهزة الإعلام وأبواق الدعاية الأخطبوطية القادرة على تسويق أى فكرة لحسابها، حتى لو لم تكن من ابتكارها.

ولذلك جاءت استراتيجية الأمن القومي، لتضع برنامج عمل تنفيذياً لنظرية الاحتواء. وكانت المجموعة المكلفة بها من كبار الخبراء وصناع القرار الذين بدأوا جلسات مناقشتهم في أواخر الأربعينيات. ولم يخرجوا في صياغتهم للوثيقة على حدود استراتيجية مبدئية، كانت قد وضعت بالفعل تطبيقاً لخطوات وقرارات سياسية للرئيس ترومان، تهدف إلى بلورة أهداف محددة عن دور أمريكا في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

اتفق لبيان مع كينان على أن القوة السوفييتية تقوم على التوسع، إذا لم تواجهها قوة مضادة في المواقع التي تختارها أمريكا، إلا أن سياسة الاحتواء قد اختارت أن تواجه السوفييت في مواقع مناسبة لهم، وألقت بالمبادرة في أيدي السوفييت، وتصورت وضعاً للقوات المسلحة الأمريكية لا يناسبها، ويهدد بالخطر علاقة أمريكا بحلفائها الطبيعيين في تجمع الأطلنطي. وقد يبدو إخلاء أوروبا من القوات العسكرية الأجنبية، سياسة أكثر جدوى، ولكن بقاء الجيش الأحمر في وسط أوروبا كان في نظر لبيان بمثابة المعضلة التي لا حل لها، بحيث اعتبر الانسحاب هو الوسيلة الوحيدة لاختبار نوايا السوفييت؛ لأنه الأساس الذي يعيد للدول الأوروبية، استقلالها. ولذلك كان لبيان يؤيد مشروع مارشال، في حين كان يعارض مبدأ ترومان ويرى أنه استراتيجية عقيمة لأن روح العداء عندما تنتشر، فإنها تسرى كالنار في الهشيم، وغالباً ما تعم الخسارة جميع الأطراف المتورطة فيها.

وفي كتابه «العزلة والأحلاف» (١٩٥٢)، يدعو لبيان كعادته إلى فهم أعمق وأشمل للمتغيرات العالمية، التي أثرت في سياسة أمريكا الخارجية منذ عام ١٩٤٠، بعد أن أصبحت المصالح الأمريكية والبريطانية في شبكة واحدة، هي التي أشار إليها رئيس الوزراء البريطاني التاريخي ونستون تشرشل في حديثه إلى الاجتماع المشترك لمجلس الكونجرس عام ١٩٥١، وكأنه وزير يسعى لكسب ثقة مجلس لا يؤيده. وكانت سياسة أمريكا الخارجية قد مرت بمرحلتين: الأولى «العزلة» وقد استمرت حتى بداية الحرب العالمية الثانية باستقطاب القوة الأمريكية للقارة حتى الفيليين وجزر المحيط الهادى. والمرحلة الثانية ظهورها كقوة أساسية في الميدان العالمى، واضطلعت الولايات المتحدة فيها بإقامة تحالف جديد سياسى وعسكرى واقتصادى.

وأصبح أمن أوروبا الحرة والدفاع عنها ضرورة حتمية للأمن الأمريكي. وتمثل هذا الهدف المشترك في تحالف أوروبا والسعى لحل المشكلة الألمانية، التي صارت المحور الذي دارت حوله الحرب الباردة.

وعاد ليبمان في كتابه «الفلسفة العامة» (١٩٥٥) إلى ما كان يقلقه دائماً ويتمثل في سقوط المجتمع الغربي بين شقى الرحى: الانحلال والإحياء، واستمرار هذا الصراع لا يمكن أن يكون في صالح الإحياء نظراً لأن مغريات الانحلال تأتي دائماً على شكل طوفان جارف وممتع لكثيرين، نظراً لاعتماده على المد الغريزي المواتى داخل النفس البشرية، في حين أن الإحياء هو جهاد النفس في أشد خصائصه وعورة. كان ليبمان يعتبر أن القضية المحورية لأى مفكر وكاتب، في أى فرع من فروع الثقافة هى قضية حضارية في الأساس. ولذلك كتب عن أمراض الدول الديمقراطية، وخلل القوى والمصالح العامة، وتحجى حماسه في الدفاع عن أخلاقيات الذوق والرقعة واللفظ والوداعة والبساطة والنقاء، متمنياً أن تصبح بمثابة الفلسفة العامة لكل الأمريكيين الذين دعاهم لاكتشاف تراثهم ومثلهم، والإلمام بالقوانين العامة التى تعتبر من بدهيات السلوك الإنسانى الراقى. ورغم ما قوبل به كتاب «الفلسفة العامة» من نقد حاد، حين حاول التوفيق بين القانون الأخلاقى والقانون الطبيعى، من منطلق أن روح القوانين واحدة مهما اختلفت المادة التى تتعامل معها، فإنه نجح في جذب الانتباه نحو المصالح المشتركة بين الأمريكيين وأصدقائهم في الخارج، كما تجلّى إيمانه بقداسة الروح البشرية، وهذه هى قمة الحكمة الفكرية.

وفي عام ١٩٦٦، غادر ليبمان واشنطن بعد ثمان وعشرين سنة ليعود إلى نيويورك حيث عاش حتى وفاته عام ١٩٧٤. وقد قلت كتاباته في تلك الفترة، لكنه ظل يحظى باحترام صانعى السياسة لأفكاره الثاقبة والصائبة، حتى أولئك الذين يخالفونه الرأى. وكان دائماً نصيراً وداعية للسلام مثل توأم فكره جورج كينان، فقد وقف خلال الخمسينيات إلى جانب قرار الأمم المتحدة الخاص بكوريا، وجند الهدنة لإتاحة الفرصة كاملة للتسوية السياسية، ولذلك عارض تقدم الجنرال دوجلاس ماك آرثر إلى نهر يالو. أما بخصوص فيتنام، فكان يخشى منذ البداية أن يؤدي توسط الأمريكيين إلى حرب برية على أراض صينية. وعاد مرة أخرى إلى فكرته عن القوة الإقليمية، وأخذ يعارض الاتجاه الأمريكى في الالتزام الزائد بما لا يعينها من مصالحها الحيوية، مما أكد مكانته كأحد حكماء عصره في السياسة الأمريكية.

ولم تكن أفكار ليبمان لتلقى قبولاً لدى عديد من الرؤساء الأمريكيين، واحداً بعد الآخر، أو لدى وزراء الخارجية، ومع ذلك ظل يحتل مكانة سامقة بين الذين قد

يختلفون معه في الرأي. وأثبتت الأحداث صدق معظم توقعاته المبنية على فروض علمية ومنطقية صادرة عن خلفية فكرية وثقافية وحضارية في غاية الثراء والخصوبة. وتمثل قدرته في المبادئ والقيم والمثل، التي نادى بها سواء في كتاباته أو أحاديثه، أكثر مما تتمثل في الخطط والتطبيقات التي أشار إليها. وقد ساعده على الاحتفاظ باستقلاله أكثر من أي كاتب أو صحفي من البارزين، أنه ظل بعيداً عن أعضاء الصفوة الذين يديرون السياسة الخارجية التي تتمركز في مركز العلاقات الخارجية بنيويورك.

وكان ليهان قد وضع مستويات في الفكر والأداء للمعلقين، لم يستطع أن يسايرها سوى قلة، فقد كان عاشقاً للإجادة والإتقان. وكتب عنه ريتشارد روفير: «على كل صحفي وكل من له اهتمام باللغة الإنجليزية أن يلم بأسلوبه في الكتابة، فقد استوى على القمة بين أساطين الكتاب الأمريكيين المحدثين. كما ينوه روفير بالمضمون الفكري والعلمي والحضاري لكتبه ودراساته فيقول:

«بمراجعة أعماله ككل فإنني رأيت فيها من الكمال فوق ما كنت أتوقع.. فقد استطاع أن يدرك معنى الوجود العسكري والسياسي للسوفييت من التطبيق إلى البلقان، وتنبأ بخلل النظام في الصين الوطنية (تاويان)، كما توقع المشكلات التي نجمت عن تعميم مبدأ ترومان، ولكن المؤرخين قد يتعذر عليهم تقييمه تقييماً كاملاً، إذا كان تقييمهم مقصوراً على حكمته الاجتماعية والسياسية.. فقد استطاع أن يجسد أجمل ما في التقاليد الليبرالية والإنسانية، وأضفى على الصحافة الأمريكية هبة ووقارا».

والآن بعد مرور أكثر من ثلث قرن على رحيله في عام ١٩٧٤، فإن الصحافة الأمريكية لم تعرف مفكراً وكاتباً في قامته، ولم يحتل مكانته آخر إذ ليس هناك نظير له، حتى الآن على الأقل. فمثلاً كان المقال الذي يكتبه ليهان مرتين أسبوعياً تحت عنوان «اليوم وغداً» ينشر في وقت واحد في أكثر من مائتي صحيفة داخل الولايات المتحدة وخارجها، طبقاً لترتيب خاص مع الجهة التي يفوضها بتوزيع هذه المقالات والتي كانت قبل عام ١٩٦٣ صحيفة «هيرالد تريبيون»، وبعدها صحيفة «واشنطن بوست». وقياساً على هذا الترتيب، فإن ليهان ضرب الرقم القياسي العالمي في عدد قرائه الموزعين بالملايين بين مختلف قارات العالم، مما جعله رائد المعلقين الصحفيين في العالم أجمع، بالإضافة إلى أنه أمضى أكثر من خمسين عاماً في كتابة التعليقات السياسية في الصحف.

وقد أصبحت آراء ليهان بمثابة المقاييس أو المعايير الصحفية والسياسية التي يقاس بها مدى صواب وآراء المعلقين في العالم الغربي بدرجة اقترابها أو انفتاحها مع

آرائه، التي أصبحت من أساسيات الفكر الصحفى مثل قوله: «لقد علمتني الحياة الصحفية ألا أرتبط بصداقات وثيقة حتى أبقى دائماً موضوعياً في تعليقاتي»، وقوله: «مع تطور الصحافة الحرة، أصبحت القضية الأساسية تتمثل في أن الصحفى، مثل العالم أو الدارس الأكاديمي، يمكن أن يضع الحقيقة في صدارة أولوياته أم يتركها تراجع إلى الخلف»، وقوله: «إن الحرب العالمية الأولى أثبتت أن هناك من القيود على الرأى العام ما لا يمكن تجنبه»، وقوله: «إن الناس يتحركون ويتصرفون طبقاً للصور التي رسمتها الدعاية في أذهانهم، وعادة ما تكون هذه الصور انعكاسات غير كاملة للحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية»، وقوله: «البشر لديهم وقت ضيق وفرص قليلة ليتعرفوا إلى بيئتهم وإلى بعضهم البعض، ولذلك فإن من الأسهل عليهم أن ينقادوا لنسخة من الأحداث الجارية مبسطة وليست دقيقة بالضرورة»، وقوله: «إن البشر ليس لديهم الاهتمام أو الدراية بتفسير مجريات الأمور»، وقوله: «إن وسائل الاتصال في المجتمع الحديث تقدم فقط صورة محدودة وبالتالي محرفة للأحداث، سواء عن قصد أو غير قصد».... إلخ.

وعندما كان لبيان يقوم برحلة إلى بلد ما، من الرحلات التي اعتاد أن ينظمها كل شتاء، فإن المسئولين في هذا البلد يترقبون كتاباته وانطباعاته التي ينشرها سواء في أثناء رحلته أو بعد عودته إلى الولايات المتحدة، ويقرأونها بعناية لا تحظى بها تقارير سفرائهم. وليس من عادته أن يطلب زيارة أية دولة أو الالتقاء بأى قطب من أقطاب العالم، وإنما الدول المختلفة هي التي تلتبس زيارته لها وتستقبله، إذا وافق على الزيارة، كما تستقبل كبار الرسميين. وبعض سفراء الدول الأجنبية عندما يحملون أوراق اعتمادهم إلى الرئيس الأمريكى، يحملون أيضا رسائل خاصة إلى لبيان لكى يقنعوه بالكتابة عن بلادهم. وقد زار لبيان موسكو مرتين بدعوة من حكومتها، ودارت حوارات بينه وبين الزعيم السوفييتى التاريخى نيكيتا خروشوف خاصة بشأن الحرب الباردة والعلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. وعندما زار خروشوف الأمم المتحدة في دورتها عام ١٩٦١، قال إن لبيان؛ هو واحد من ثلاثة صحفيين يتحرون الموضوعية والدقة والنزاهة في الكتابة عن الاتحاد السوفييتى، أما الآخران فهما ماكس فرانكل وهاديسون سالزبورى، وكلاهما من كتاب صحيفة «نيويورك تايمز».

وأجيال الصحفيين الأمريكيين التي حملت مسئولية العمل الصحفى، سواء في عهد لبيان أو بعده، ظلت تفخر بأنها من أبنائه وتلاميذه الذين تعلموا الكثير في مدرسته الصحفية، وخاصة هؤلاء الذين تخصصوا في الكتابة عن السياسة الخارجية. فقد انكبوا على دراسة كتبه التي ظل يصدرها منذ عام ١٩١٣، ومقالاته التي نشرت

في شتى أرجاء العالم، ليستخرجوا منها المناهج الصحفية والفكرية التي تهديهم سواء السبيل، سواء فيما يتصل بأساليب الصياغة والشفافية في التعبير أو الموضوعية في العرض والتحليل، أى كل ما يتصل بالشكل اللغوي والمضمون الفكرى في العمل الصحفى الذى يفترض فيه أن يصوغ عقول الجماهير، ويمدها بالوعى الذى يمكنها من الحكم السديد على مختلف القضايا والمشكلات المطروحة على الساحة.

وفي سبتمبر ١٩٥٩، عندما كان ليبيا يحتفل بعيد ميلاده السابعين، أقام له نادى الصحافة في واشنطن حفل تكريم، تحدث فيه ريتشارد نيكسون نائب الرئيس أيزنهاور في ذلك الوقت، كما أصدر اثنا عشر من تلاميذه من المؤرخين والمعلقين ورجال السياسة، كتاباً خاصاً عنه، وهو شرف لم يحصل عليه أى صحفى أمريكى، وهو على قيد الحياة. وفي هذا الاحتفال، قال ليبيا إن التعليق على الأنباء مسئولية خطيرة. وعندما سئل عن سر نجاحه، قال بمنتهى البساطة والسلاسة: أولاً أنا لا أكتب أبداً في موضوع لا ألم به إماماً كافياً، وثانياً: أنا أشجبت التنبؤ بأحداث المستقبل أو توجيه النصح والإرشاد، فكم من خطايا ترتكب باسم «السبق الصحفى»، الذى يفترض فيه أن مفهومه الفكرى الناضج يقتصر على بلوغ آفاق جديدة في التفسير والتحليل لم يبلغها أحد من قبل، حتى لو كانت مضادة لكل التفسيرات السابقة، بشرط أن تكون على أسس منطقية وعقلانية وواقعية وتضيف إضاءات لمناطق وزوايا، كانت معتمة أو مبهمة أو مجهولة. ولذلك يحدد ليبيا مهمته الصحفية والفكرية بأنها شرح وتفسير أحداث جرت بالفعل وتحتاج إلى تنوير جوانبها. وهناك قضايا وظروف كثيرة تقع كل يوم، يحتاج القراء إلى تفسير لها بلا أية مؤثرات جانبية، يمكن أن تكون بمثابة حواجز أو عقبات في سبيل استيعابها على وجهها الصحيح.

وكان فكر ليبيا يتألق دائماً في المواقف المصيرية، التى تمر بها الولايات المتحدة والتى كان كبار القادة والمسؤولين يرون فيها ضرورة الاستنارة بأرائه؛ حتى لا يدخلوا في طرق مسدودة أو أنفاق مظلمة. فمثلاً كان من أول الأعمال التى قام بها الرئيس جونسون عقب توليه الرئاسة أثر مصرع كينيدي، هو قيامه بزيارة ليبيا في بيته. فليست له أية انحيازات أو انتفاءات حزبية أو مذهبية، لأنه كان يؤمن بأن الصحفى أو الكاتب أو المفكر الحر قولاً وفعلاً، هو الذى ينأى بفكره الموضوعى عن الحركات الحزبية، التى هى في حقيقتها تقنين أو تبرير لميول التعصب السياسى. وبذلك يستطيع في أى موقف أو قضية أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل والقيم العليا، التى عاشت على هديها الإنسانية عبر العصور. وقد يؤازر المذاهب والشخصيات ولكن بقدر احتفاظها بروح هذه المثل والقيم.

من هذا المنطلق، لم يكن هناك إطار سياسى محدد، يمكن أن يوضع فيه لبيمان، فهو يتخذ الموقف الذى يراه صائبًا وقادرًا على التفاعل المثمر مع المواقف الأخرى دون صراعات عقيمة. فمثلاً فى شبابه المبكر كان اشتراكياً، وفى عام ١٩٢٨ كان متحمساً للمرشح الديمقراطى للرئاسة، لكنه فى عام ١٩٣٢ شكك فى مقدرة روزفلت الديمقراطى، وفى عام ١٩٣٦ كان يفضل المرشح الجمهورى على روزفلت، وفى عام ١٩٥٢ ساند أيزنهاور، وفى عام ١٩٦٠ أيد كينيدي ضد نيكسون.

وكان سلوك الساسة والقادة مع لبيمان، يدل على أنهم وضعوه على مستوى يتخطى كل الانحيازات السياسية والاقتصادية، التى تمسك عادة بخناق الإدارة الأمريكية. فمثلاً كانت نزعته المتحررة واضحة أمام كل الأطراف المعنية، ومع ذلك ظل يعمل معظم سنى حياته كاتباً لأشهر عمود فى صحيفة «هيرالد تريبيون»، التى تمثل مصالح رجال المال والأعمال فى الحزب الجمهورى (المحافظ)، وكان سعيداً بالعمل فى هذه الصحيفة التى كانت بدورها فى منتهى الفخر به؛ فهو يعمل بجد ومثابرة طالما أن مجال العمل يمنحه حرية كاملة لتوصيل رسالته بالشكل الذى يرتضيه لنفسه، ولكنه كان على استعداد أيضاً لأن يترك هذا المجال نفسه، لو وجدته ينحرف عن المسار الذى تحمس له عند البداية. وهذا ما فعله لبيمان بشأن حلف شمال الأطلنطى.

كان لبيمان، أكثر من أى شخص آخر، هو المخطط الأول لحلف شمال الأطلنطى، فقد دعا إليه قبل أن يبدأ التفكير الرسمى فى إنشائه، ومع ذلك فلم يلبث أن اختلف مع واحد من أبرز الذين أرسوا قواعد ذلك الحلف، وهو دين أتشيسون وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت. ولم يتردد لحظة واحدة فى ترك الجمل؛ بما حمل لأنه كان يتعامل دائماً مع نفسه قبل أن يتعامل مع الآخرين، الذين قد يكونون السبب فى فشله أو يكون هو قد فشل من تلقاء نفسه، وفى كلتا الحالتين فإنه كان ينسحب من المجال بإرادته ولا ينتظر من يلفت نظره إلى ذلك. فإذا كان يتحتم على الصحفى مواجهة حقائق الحياة لتعريف الآخرين بمعطياتها، فإنه من باب أولى يتحتم عليه مواجهتها لتعريف نفسه بها؛ بحيث لا يتركها تدخل به فى متاهات هو فى غنى عنها لتوفير جهده ووقته وطاقته وفكره فى مجالات أخرى إيجابية ومثمرة. وقد اعترف بصراحة أنه حاول أن يشتغل مخبراً صحفياً، ولكنه فشل لأنه لا يملك حاسة استكشاف الأخبار، وقد فاتته أخبار كثيرة كانت تصلح عناوين رئيسية (مانشترات)، لكنه كان يتعلم دائماً من كل التجارب التى يمر بها، خاصة الفاشلة منها. فمثلاً تعلم من فشله كمخبر صحفى ألا يبحث عن الأخبار، وإنما مصادر الأخبار هى التى

تبحث عنه، إذ نجح في نقل مركز الثقل من هذه المصادر إلى ذاته هو بكل تاريخها وإنجازها، بحيث أصبح كبار المسئولين يدعون أنفسهم إلى مائدته، ويتصلون به تليفونيا لإبلاغه بكل جديد.

وقد حصل لبيان على جائزة بوليتزر في «تحليل السياسة الدولية» عام ١٩٦٢، كما حصل على جائزة «نادى الصحافة» ثلاث مرات، باعتباره أفضل معلق على الأخبار الخارجية، كذلك حصل على أوسمة من بعض الحكومات الأجنبية. ومع كل هذه الأبحاث الصحفية التي حققها، فإن أبرز الصفات التي يتحلى بها تتمثل في التواضع والرفقة والبساطة وابتعاده عن التكلف والتصنع. وقد اعتاد أن يستمع كثيراً ويتكلم قليلاً، وينصت لكل حديث، كما لو كان تلميذاً نجيباً يجلس في فصل دراسي. فكان مؤمناً أن الصحفي يظل يتعلم طوال حياته حتى من أبسط الناس فكراً وثقافة من الذين يقرأون الحياة وتجارها على صفحاتها المفتوحة أمامهم، في خضم خبراتهم، التي قد لا يمر بها كبار المثقفين. فالصحفي لا يدرس في مدرسة الحياة فحسب، بل يعيش فيها بكل جوارحه ليل نهار.